

القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي

د / صالح مفقوده
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر

RESUME

LES VALEURS MORALES ARABES VUES A TRAVERS LA POESIE PRE-ISLAMIQUE - OU (DJAHILIA)

Cette étude se veut réparatrice des idées préconçues de certaines études littéraires et historiques, qui considèrent que les peuplades de l'ère pré-islamique, étaient arriérées, simples et incultes et cela en relation avec leur environnement saharien et désertique ; au point qu'elles ont été associées à l'esprit même de ces peuplades, c.à.d. qu'ils la qualifient de dureté et de sécheresse comme le paysage dans lequel elles vivaient et évoluaient.

Par conséquent et contrairement à ce qui a été affirmé auparavant, nous pensons que c'est la poésie de l'ère dite (Djahilia) ou ignorance qui a été la meilleure, voire même la plus remarquable expression des vertus morales arabes originelles qui sont la générosité et le courage.

Par ailleurs ; de multiples exemples illustrent si bien toutes ces vertus chères aux arabes qui sont la générosité pour elle-même, le courage sans coup férir et enfin la franchise avec soi-même et les autres, ce que l'islam n'a pas manqué de démontrer par la suite au fil des siècles.

تلخيص

تحاول هذه الدراسة تصحيح خطأ طالما تكرر في الدراسات الأدبية والتاريخية، وهو الحكم على الإنسان الجاهلي بالتخلف والبساطة والجهل، وقد يعود السبب في تلك الأحكام القاسية، إلى الانطلاق من مواقف مسبقة تعتمد التفسير الخاطيء للفظلة الجاهلية، أو تحكم على العربي من خلال طبيعة الصحراء الجافة والقاسية. والحكم الصحيح في رأينا هو الذي ينطلق من الشعر الجاهلي، الذي يعد خير معبر عن الأخلاق العربية الأصيلة الممثلة في الكرم العربي والشجاعة. وقد بدت لنا جملة من الصور الرائعة عن الكرم العربي الذي يتميز بأنه كرم من أجل الكرم، والشجاعة البعيدة عن كل قهور، والتي تعني الصدق مع النفس ومع الآخرين، وهي الفضائل التي أكدها الإسلام فيما بعد.

مقدمة

شاع في الدراسات الأدبية والفكرية زعم بأن الفترة السابقة للإسلام كانت فترة جهل وتخلف فكري وحضاري ، وصُوِّرَ العربي على أنه متخلف وأمي وجاهل ، وزاد من هذا الحكم النية الحسنة في إضفاء طابع القداسة على العصر الإسلامي ، وراح الناس يذمون أسلافهم الجاهليين ويصفونهم بمختلف النعوت التي لاتليق بأمثال أولئك الذين أثبتوا جدارتهم في أكثر من ميدان.

ومعلوم أن لفظ الجاهلية الذي كان السبب في خطأ تلك الأحكام هولفظ ديني سياسي يعني الجهل بالدين ولايعني الجهل ضد العلم ، إنه لفظ أطلقه الاسلام على الحقبة السالفة عنه كما أن صعوبة الحياة في الجزيرة العربية ليست مبررا كافيا لتكوين إنسان متخلف ، بل العكس هو الصحيح فلقد أنجبت هذه البيئة رجالا كانوا قمة في الإنسانية، ورهافة الحس ، وحسن الخلق ،وكما هو معلوم فإن العرب كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان ،حتى أن الرسول تحداهم بالقرآن الكريم ،ومن غير المعقول أن يتحدى الرسول صلى الله عليه وسلم ،قوما متخلفين جاهلين ، وإذن فمن المفروض أن نحسن الظن بمؤلاء، وليكن حكمنا عليهم مبنيا على أهم الوثائق صحة، وهو الشعر الجاهلي، الذي نطق به الجاهليون فصوروا من خلاله أحاسيسهم وعواطفهم وأخلاقهم ، وسنركز على أهم القيم العربية ممثلة في الكرم والشجاعة ،وما يتبعهما من فضائل مثل الصبر والجلد والصدق ، الأمر الذي يعكس فلسفة العربي تجاه الوجود ، وهو الشيء الذي لاتزال آثاره عالقة بالنفوس لحد الآن — شئنا أم أيينا — فلنكشف عن بعض أخلاقنا من خلال الكشف عن أخلاق العربي من خلال الشعر الجاهلي

العربي و البيئة:

من المسلم أن لكل بيئة أثرا في سكان أهلها و أخلاقهم، غير أننا نريد أن نتجنب في هذا الصدد، تلك الأحكام التي تنطلق مباشرة، إلى الحكم على الإنسان العربي من خلال البيئة الجاهلية، فقد بدت حسبما لاحظنا هذه البيئة لا ككل البيئات إذ صورت على أنها جحيم لا يطاق، و رغم أنها أرض طبيعية لينة واسعة ناعمة يجلو العيش فيها في بعض الأحيان، و يصعب في بعض الأحيان، إلا أن الدارسين نظروا إلى هذه المنطقة بمنظار غريب، و حكموا على العربي من خلال ذلك.

و يبدو في مثل تلك الأحكام إجحاف، و مغالطة بسبب الانطلاق من النظرة الجغرافية للبيئة، فبعضهم يرى أن لفظة الجاهلية في حد ذاتها دليل كاف على الحكم على إنسان هذه الحقبة بصفات لعله كان بريئا منها، يقول خليل هندراوي: «على أن الأقدمين قد أسرفوا كثيرا في وسم الأخلاق الجاهلية بالأخلاق الفظة القاسية و هم ما فعلوا ذلك إلا ليعيدوا نتيجة المقارنة بين المثل الجاهلية، و المثل الإسلامية. ... و ليس عندي ما يمنع أبدا أن

نصحح أحكامنا على أخلاق العرب من خلال نصوصهم و تراثهم الفكري»⁽¹⁾

فلتجنب الأحكام الجاهزة -إذن- و لنعمد مباشرة إلى استقراء شعرنا القديم لنكشف عن القيم الأخلاقية حسبما تنطق بها هذه القصائد، ومن خلال ذلك نتعرف على جوانب عديدة من الشخصية العربية قبل الإسلام، فكما يقول جبرائيل جبور: «...الشعر القديم هو الذي يمثل الخلق العربي الصميم.»⁽²⁾

و ضروري أن نعرف طبيعة الخلق العربي لأن نفسية العربي القديم ما تزال تظهر في سلوكنا، وكما يقول يوسف العث في معرض حديثه عن نفسية العربي: «قلت في نفسي: أليس منحجلاً ألا نعرف طبيعة العربي و طبيعته هي التي توجه مستقبل بلادنا، وهي التي رسمت ماضينا، وترسم حاضرنا.»⁽³⁾

فلنكشف عن بعض الجوانب الأخلاقية من الشخصية للعربي كما صورها الشعر الجاهلي، دون أن نهمل طبيعة الحال البيئية التي ظهر فيها هذا الشعر، غير أننا نطالب بنظرة كلية لهذه البيئة التي تحتوي على جوانب الحياة المختلفة، كما تحتوي على أسباب الموت، فليست هذه الصحراء شراً كله كما أنها ليست جنة فيجاء، ففي ما يتعلق بالجانب السهل، فإننا نجد بساطة العيش و طبيعته، و انعدام التكلف كما نجد سيطرة العواطف الإنسانية. أما فيما يتعلق بالجانب الآخر، فقد صور لنا الشعراء بيئة قاحلة، يندر فيها السماء، و يقل العشب. و لقد كان لصعوبة هذه البيئة و قسوتها أثر على جسم الإنسان العربي و أخلاقه إذ عرف بالصبر هو و حيواناته التي يستخدمها، و لم يكن تأثير هذه البيئة على جسم الإنسان فقط بل أثر على الناحية الأخلاقية، فكان لهذه الطبيعة أثر كبير على القيم التي سادت في هذا العصر و التي نجدها في قصائد الجاهلية.

و الحقيقة أن قسوة بيئة الصحراء، و صعوبة المسالك فيها لم يكن ليخلق إنساناً قاسياً مقيداً عن الانتقال، بل أننا نجد أن هذا الإنسان لا يماثل هذه البيئة فقط بل يسيطر عليها، إنه يخضع لها أحياناً و لكن من أجل السيطرة عليها، فلم يكن العربي يعيش في عزلة وسط هذه الصحراء على نحو ما يذهب إليه عبده الشمالي في قوله: «و البيئة الجاهلية عميقة برائحة الإبل و الصحراء، و مترامية الأطراف، صعبة المواصلات، نادرة الطرق، و فرة المسالك شمسها محرقة و رمالها كاوية.. و هذه الصعوبات الطبيعية جعلت الاتصال بالخارج عسراً شبه مستحيل، و صدت الجاهلي عن الاكتراث لما هو خارج جزيرته، و محاولة الإطلاع على حالة الأجانب و الاهتمام بعلومهم و فلسفتهم، و لذلك سميت شبه الجزيرة العربية "جزيرة"»⁽⁴⁾.

حقاً إن شبه الجزيرة العربية هي كما وصفها عبده الشمالي بيئة صحراوية صعبة و لكن هل جعلت هذه الطبيعة الإنسان العربي يعيش في عزلة؟

إننا لا نذهب إلى ما يذهب إليه عبده الشمالي فهناك عدة أدلة تثبت اتصال العرب بغيرهم، و بجيرانهم بصورة خاصة، عن طريق التجارة خاصة، و إذا كانت الطبيعة قاسية فإن العربي كان مؤهلاً لهذه الطبيعة عارفاً

بأسرارها وخبائها. و لم تكن حياة العرب مستقرة معزولة، بل كانت قائمة على التنقل و الحركة بصفة عامة. و من هذا فإن تأثير البيئة على العربي و أخلاقه أمر نقر به، و يؤكد عليه كثير من الباحثين. هذا محمد زكي العشماوي يرد أخلاق العربي إلى طبيعة البيئة التي عاش فيها، يقول: «...إن الجفاف و الجذب و وعورة الحياة هي التي حددت القيم الأخلاقية عند العرب، فشعور العرب بالضعف أمام قوة الطبيعة و قسوتها هو الذي فرض عليهم تقديس القوة و البسالة، و هو الذي جعلها مبدأ من مبادئ السيادة عند العربي، و هو كذلك الذي ولد الشعور بالحاجة إلى واجب مقدس و هو واجب الضيافة و النجدة و المروءة». (5)

فمحمد النويهى يربط بين طبيعة الجزيرة العربية، و خلق الإنسان العربي، فالصفات التي امتاز بها العربي، و القيم التي كان يتمسك بها هي وليدة الظروف الطبيعية و الاجتماعية التي ينشأ فيها الإنسان. إن لقسوة الطبيعة، و قوة الأشياء ترجيحاً في نفس الشاعر يبدو من خلال القصائد، و يظهر في إقدام العربي و شجاعته. و معلوم أن الطبيعة العربية مع قسوتها كانت تحتوي على وسائل الحياة، و أسباب الخصب و النماء، و كذلك الشخصية العربية كانت مع قوتها و صعوبتها شخصية حساسة عاطفية شفوقة، فالعربي يحرص كثيراً على إغاثة الملهوف و مساعدة الضعيف، و إكرام الضيف.

يربط المستشرق ريجس بلاشير أيضاً بين قوة العربي و مزاجه الثائر و البيئة التي كان يعيش فيها يقول: «ففي هذا العالم حيث فقدان الأمن حالة طبيعية، و الغزو وسيلة للعيش، و الثأر واجب مقدس فرض على البدوي أن يكون محارباً، و لم يكن إلا هذا حتى و لو لم يرتفع فوق مستوى الراعي البسيط، فمن واجبه حماية أمواله و عيون الماء و مواشيه، كما يجب عليه حماية الحضريين و إجبارهم على الإخلاص له». (6)

و يرى أيضاً أن هذه الطبيعة بهذه الصفات مضافة إلى رواسب عديدة من فقر و حرمان كل ذلك يجعل من العربي «سفاكاً متكبراً حتى في حالات البؤس، سريع الانفعال و الغضب ميلاً إلى ازدراء حياته و حياة الآخرين معجبا بالقوة مهما كانت نتائجها». (7)

و الحقيقة أن الإنسان العربي لم يكن ذلك الفظ الخشن، بل كانت فيه جوانب من اللين و المرونة، وهي الجوانب الإنسانية العاطفية مثل حبه للإغاثة، إكرامه للضيوف، و رفقته بالضعفاء، و يمكننا التطرق إلى بعض هذه القيم الخلقية من خلال الشعراء الجاهلي، و المعلقات خاصة. وهذا ما يذهب إليه جبرائيل جبور: «فإن الخلق العربي في أساسه لم يكن بهذه الفظاظ، و الخشونة كما يتوهم البعض، و لم تكن استجابة البدوي للعواطف الإنسانية استجابة سلبية ضعيفة بحيث لم تؤثر عليه كما أثرت حياة الغلظة و القساوة التي فرضتها عليه باديته، بل كانت استجابة إيجابية قوية تتفق حتى مع ما يظهر أنه مناقض لها في بيئته الخشنة القاسية». (8)

أولاً: الكرم

لا يعني الكرم العطاء المادي فقط، بل يعني الكرم الداخلي النابع من النفس المتعاطفة مع الآخرين، و لذلك نجد ابن سيده يعرف الكرم في كتابه المخصص بقوله: «الكرم: ضد اللؤم الذي هو شح النفس، و الكرم الصفوح الواسع الخلق».⁽⁹⁾

و لا يكاد الناس قديماً و حديثاً يختلفون حول الكرم و وجوده عند العرب منذ الجاهلية بل في هذه الفترة خاصة، و من ثم فقد امتدح الشعراء ممدوحهم بهذه الصفة، و افتخر بها الأبطال ، يورد ابن سيده مجموعة من الألفاظ الدالة على الكرم والعطاء نورد منها ما يلي:

السخاء - السماحة - الغيدان - الغمر - النوال - المنحة و المنيحة (و هي الناقة التي يعطيها رجل لرجل آخر ليشرب لبنها ثم يردّها)، و الرفد (و هو الصلة و العطية، و هو عطية بلا ثمن - التبرع - العارية (و هي التي لاتعاد إلى صاحبها) - الجود - البذل...⁽¹⁰⁾

و هذه الألفاظ الكثيرة و غيرها تدل على وجود هذه الصفة الأخلاقية المميزة للإنسان العربي، والتي تدل على مساعدة الفرد لأخيه دون محاسبة فيما بعد، فالكرم يشمل القضايا التي ترد و التي لا ترد، غير أن الكرم العربي من خلال هذه الألفاظ نجد أن صاحبه لا ينتظر الرد بل هو عطاء من أجل العطاء.

و قد ظهر الكرم في أسمى صورته متمثلاً في الإيثار، الذي هو تفضيل الآخرين على النفس، فقد يكون المرء بحاجة إلى الشيء و مع ذلك يقتسمه مع مستحقه.

وإذا نحن بحثنا عن أسباب هذا الكرم العربي، فإننا نجد الباحثين يقدمون آراء مختلفة، فمصطفى ناصف يرى أن هذه الصفة مقرونة دوماً مع غيرها من الفضائل بالتحدي، تحدي بواعث الموت و الهلاك، و تحدي غرائز الحياة بشكل واضح⁽¹¹⁾.

و يذهب محمد النويهي إلى أن الكرم العربي القديم كان كرماً مادياً هدفه تأمين المستقبل و الادخار ، إذ علم الناس أن المال غاد و رائج، و من هنا فإن الكرم في نظر النويهي لم يكن نابعا من القلب، بل كان كرماً مادياً⁽¹²⁾.

و قبل أن أقدم وجهة نظري حول أسباب و دواعي الكرم، يجدر بنا استعراض بعض صور الكرم الواردة في الشعر الجاهلي، ليكون حكمنا مستنداً إلى دليل.

1 - مظاهر الكرم العربي:

من مظاهر الكرم العربي نحر الناقة، و أكل لحمها، نجد الشاعر امرؤ القيس يقول⁽¹³⁾:

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَدَارَى مَطْيَبِي
فَيَا عَجَبًا لِرِخْلِهَا التَّحَمَّلِ
فَطَلَّ الْعَدَارَى يِرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا
وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ الْمُفْتَلِ (14).

فهو يذكر هذا اليوم، ويعتبره من الأيام الخالدة في ذاكرة الزمن، وكأن نحر ناقته أحسن ما يخلد هذا اليوم الممتع، إن الشاعر امرؤ القيس لا ييخل بأمواله، و لهذا نجده يقول مرة أخرى، مخاطبا الذئب (15).

كِلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتُهُ
وَمَنْ يَحْتَرِثُ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يَهْزُلِ

و نجد صورة أخرى لنحر النوق في شعر طرفة بن العبد، إذ يقول (16):

وَبِرِّكَ هَجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي
نَوَادِيهِ أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ (17)
فَمَرَّتْ كَهَاءَ ذَاتٍ خَيْفٍ جُلَالَةٍ
عَقِيلَةَ شَيْخٍ كَالْوَيْلِ يَلْنَدِ (18)
تَقُولُ وَقَدْ تَرَا لَوَظِيفُ وَسَاقِهَا
أَلَسْتَ تَرَى أَنْ قَلْدَ أَتَيْتَ بِمُؤِيدِ (19)
وَقَالَ: أَلَا مَاذَا تَرُونَ بِشَارِبِ
شَايِدِ عَلَيكُمْ بَعِيَهُ مُتَعَمِّدِ (20)
وَقَالَ ذُرُوهُ إِنَّمَا نَفَعَهَا لَهُ
وَالِإِ تَفَكُّوا قَاصِي الْبِرِّكَ يَزْدَدِ (21)
فَضَّلَ الْإِمَاءَ يَمْتَلِلْنَ حُورَاهَا
وَيُسَعَى عَلَيْنَا بِالسَّيْفِ الْمُسَرِّهِ (22)

فطرفة بن العبد يثير مخافة النوق، لأنه إذا قام بالغ في الذبح كرما و سخاء. وهذا الكرم يبدو في الإقبال على الشرب، وفي الضيافة و لن تجدي مقاومة الضيوف للكف من نحر الإبل، بل إن ذلك يزيده إصرارا على الذبح و هكذا تظل الإماء تسعى بالسديف المسرهد، فيكون يوما من أيام الحياة يستحق التسجيل و الخلود، يقول جبرائيل جبور: «ولعل أبلغ صورة في الشعر العربي للكرم هي ما ذكره طرفة بن العبد في كيف (هكذا) ينهض بسيفه إلى نياقه الباركة، فتفر منه لأنها تعلم أنه لا يفاجئها إلا لينحر منها لأضيافه، فيأخذ بعقر ما ندر و هرب منها، و يحاول أضيافه إيقافه عند حد فيرد عليهم أحد أصحابه: «دعوه و شأنه، و إلا فإنكم إذا عارضتموه ازداد عقرا و نحرا لها». (23)

و في قصيدة لبيد المعلقة نجد الأبيات الآتية تصور نحر النوق و توزيع لحومها على المستحقين من الجائعين و الأراامل يقول (24):

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا
بِمَعَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَعْلَامُهَا (25)

- أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ
بُذِلَتْ لِحَيْرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامِئِهَا (26)
- فَالصَّيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَمَّا
هَبَطَا تُبَالَةَ مُخَصَّبًا أَهْضَامُهَا (27)
- تَأْوِي إِلَيَّ الْأَطْنَابُ كُلُّ رَدِيئَةٍ
مِثْلُ الْبَلِيَّةِ قَالَصْ أَهْدَأُهَا (28)
- وَيُكَلِّلونَ إِذَا الرِّيَابُ حُتَّتْ وَوَحَتْ
خُلُجًا تَمُدُّ شَوَارِعًا أَيَّتَامُهَا (29)
- إِنَّا إِذَا التَّقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ
مِنَّا لِرِزَارِ عَظِيمَةٍ جَشَامُهَا (30)
- وَمَقْسَمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا
وَمَعْدَمٌ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا (31)
- فَضْلًا وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى
سَمَحَ كَسُوبٌ وَغَائِبٌ غَنَامُهَا (32)
- مِنْ مَعْشَرٍ سَنَنْتَ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يَبُورُ فِعَالُهُمْ
إِذْ لَا يَمِيلُ مَعَ الْهَيْوَى أَحْلَامُهَا (34)

2 - دواعي الكرم العربي:

يتفق كل الباحثين و الدارسين على كرم الإنسان العربي، ولكنهم يختلفون في الأسباب المؤدية إلى هذا الكرم، ففي حين يرى بعضهم أن السبب يرجع إلى حب المساعدة، و الشفقة على الآخرين، يرى آخرون أن السبب يعود إلى الرغبة في تأمين المستقبل. وستعرض لدواعي الكرم عند العربي، مستدلين بالشعر الجاهلي.

أ - التوازن الاجتماعي:

من بين الأسباب الداعية إلى الكرم العربي في العصر الجاهلي تحقيق التوازن الاجتماعي بين الموهوبين و المحرومين، و هذا ما جعل بعض الناس يقتسم أمواله مع الآخرين، و لنا في ظاهرة الشعراء الصعاليك الذين كانوا يقسمون الأموال على المحتاجين، خير مثال على نشأة هذه الأفكار الداعية إلى فك البعد بين الطبقات الاجتماعية، و من هنا نجد الداعي أو الآداب في العصر الجاهلي يدعو الجميع،

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى
لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ (35)

و لم يكن الكرم خاصا بجماعة دون أخرى، و في هذا دليل على النزعة الإنسانية التي يتصف بها العربي، و نجد في ظاهرة الأخذ بالثأر و الأحلاف جانبا يدل على النزعة الجماعية.

ب - إثبات النفس و تحقيق الوجود:

يقال أحيانا إنه لولا زهير لما ذكر هرم بن سنان، و لولا المتنبي لما اشتهر سيف الدولة، فالشعراء هم الذين يخلدون الأشخاص، و نحن على علم بأن سبب تخليد الشعر لهؤلاء هو كرمهم، فقد كان هرم بن سنان كريما حين دفع الديات، كما كان سيف الدولة كريما مع المتنبي، فالكرم إذن وسيلة للذكر، هذا ما آمن به الناس منذ

القدم، حيث كانوا يشتركون أحاديث المجد و البقاء، و الذكر الحسن بالكرم و السخاء و البذل، فحين يتوفى الشخص الكريم يبقى ذكره بعد وفاته، هذا ما يمكن فهمه من خلال الشعر، وإضافة إلى السبب السابق، يقول مصطفى ناصف عن الكرم الجاهلي: «لقد امتدح الشاعر العربي منذ القدم الكرم و صور الرجل الفاضل، و لكن صورة الرجل الفاضل أو المثل الأعلى كانت تصدر عن بواعث.. فصورة الكرم و النجدة في الشعر مقرونة -دائما- بتحدي بواعث الموت و الهلاك، هذا واضح في الكرم ووضوحه في النجدة و الشجاعة و لذلك فالوصف الدقيق للبذل ليس هو الكرم و الشجاعة، و إنما هو موقف خاص إزاء بواعث حفظ الذات و تحدي غرائز الحياة بشكل واضح».(36)

إن الكرم كان وسيلة من وسائل البقاء في نظر مصطفى ناصف، و لم يكن كرما هكذا بدون هدف، فالعربي ينتظر من هذا الكرم أن يبقيه، و يخلده، و نعتقد أن هذا الرأي سليم لوجود ما يدعمه في الشعر فهذا طرفة يقول بعد تصويره لنحر الناقة: (37)

فَإِنْ مِتُّ فَأَنْعِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَ شَقِيَّ عَلَيَّ الْجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدٍ

ج - تأمين المستقبل:

ذكرنا أن الإنسان الجاهلي كان يتمسك بصفة الكرم، من أجل أن يذكر في المستقبل بعد وفاته، و لم يكن يهدف إلى تأمين المستقبل فحسب، بل كان هدفه أبعد من ذلك خلافا لما يراه «النويهى» الذي يقول: «اهتدى الجاهليون إلى الكرم كوسيلة للاختيار من هذا التقلب، و تخفيف أسوأ عواقبه، فهو نوع من ضمان المستقبل، أو صفة (للتأمين الاجتماعي) إن شئت. فالمال كما يقول شاعرهم غاد و رائح، و لا يبقى منه إلا الأحاديث و الذكر، إن اشتهر عنك أنك كنت كريما في زمن غناك، فهذا أجدر أن يحمل الآخرين على معونتك إذا افتقرت و احتجت لذلك».(38)

إن الكرم هو وسيلة لتأمين المستقبل، فالعربي يكرم الآخرين من أجل أن يتلقى منه العطاء، و هذا الرأي صحيح إلى حد ما، نجد الشاعر زهير يقول:

لِحِيِّ حَلَالٍ يَعْصِمُ النَّاسُ أَمْرَهُمْ إِذَا طَلَعَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمَعْظَمِ (39)
كِرَامٍ فَلَا دُوَّ الْوَتْرِ يُدْرِكُ تَبْلَهُ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلِمِ

و لكن هل ما يقدمه العربي ينتظر منه الرد؟

إننا حين نتتبع الأشعار نجد الإنسان العربي يميل إلى الكرم المتواصل و المتزايد، حقيقة هو ينتظر الجزاء و لكن كدليل و رمز على الاعتراف به، و ليس حبا في هذا الرد، إنه يكتفي بأن يرد على كرمه بالقول الحسن و كفى، و على ذلك فإن الكرم العربي، كان من أجل مقاومة الموت و الهلاك سواء بالنسبة للشخص الذي يقدم

المكارم أو الشخص الذي يتلقى العطاء. ففي اعتقادي أنه ينبغي أن نحسن النية بهذه الصفة العربية الأصيلة التي اتصف بها العربي، من تقديم المساعدة للضعفاء و نحر الناقة للضيوف، إن ذلك يفوق أن يكون ادخارا للمستقبل، خاصة أنه موجه للضعفاء و المساكين، يقول فيليب حتي: «و يظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعدادة لنحر ناقتة، وتقدمها طعاما للضيف أو لإطعام الفقراء و المساكين»⁽⁴⁰⁾

إن العربي كان يهدف من كرمه إلى تقديم مساعدة للآخرين، و الانتصار على الموت و الاعتداد للمستقبل، و قد كانت هذه هي عينها أسباب الكرم إضافة إلى متطلبات البيئة الجاهلية التي تفرض التعاون و المساعدة.

ثانياً: الشجاعة و الإقدام

1 - طبيعة الشجاعة العربية:

عرف الإنسان العربي بالشجاعة و الإقدام و قد سجل ذلك في شعره، و الشجاعة عند الجاهلي تعني الإقدام على الحياة و الإقبال على كل ما فيها من ملذات و آلام دون خوف أو حجل فقد كانت طبيعة العربي مجبولة على الصراع مع الطبيعة دون خضوع.

و من ضمن الأمور التي تدفعهم إلى الشجاعة، إيمانهم بأنه لا مفر من الموت، وأن الجبن لا يقي من الموت، بل أنهم أخذوا قاعدة من الحياة مفادها أن من يقتل مدبراً أكثر ممن قتل مقبلاً، يقول صاحب العقد الفريد: «وتقول العرب (أن) الشجاعة وقاية و الجبن مقتلة، و اعتبر (من) ذلك، (أن من) يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً»⁽⁴¹⁾.

و من ثم فقد تعود العربي على الإقدام، و حرص على تعليمه لأبنائه و تعلم التحدي، تحدي كل شيء مهما عظم، و لكن الشيء الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن العربي لم يكن يقدم على الموت بجهل و قهور، بل إن الشجاعة في مفهومه تقتضي المحافظة على النفس و مجانبة الأخطار حتى إذا ما تأكد من أنه لا سبيل سوى خوض المعركة خاضها بكل قوة،

و لقد بلغ من شدة حبه للإقدام أنهم كانوا يمتدحون الظلم أحياناً، و التعجيل بالحرب، و الذي لا تكون لديه القدرة على هذه الأعمال يمكن أن كون عرضة لظلم الآخرين. يقول عمر الدسوقي عن الشجاعة العربية المتصفة ببعض الفضائل والصفات الإنسانية الأخرى: «وكان من أبرز صفاتهم شجاعة فيها قوة، و تحدي للمنية وفيها دربة و تفوق في استعمال الأسلحة المختلفة، و فيها إنسانية و كرم، و إنصاف للأعداء، و وفاء للوعد»⁽⁴²⁾.

كان من أبرز خصائص الشجاعة عندهم نبيل الوسيلة، فلم يكن يهمهم النصر النهائي بقدر ما كانت تمهم طريقة النصر نفسها على اعتبار أن الوسيلة في نظر هؤلاء جزء لا يتجزأ من الهدف.

إن العربي حين يتحتم عليه حوض معركة فإنه لا يتقاعس، و لا يتردد، و إنما يمضي إلى هدفه مباشرة فيما عرف بالحزم و العزم، يقول الدسوقي: «و الشجاعة تقتضي أن يكون الفتى ذا عزيمة و حزم، و لا يتردد و لا يتلوم، و إلا قضى عليه ترده و تقاعسه، فهو يناجز فرسانا شجعانا، فلا بد أن يكون قوي الجنان نافذ الرأي ذا بصيرة».(43)

2 - مظاهر الشجاعة:

أ - إغاثة الملهوف

من مظاهر الشجاعة تلبية النداء و قت الخطر، و النهوض للدفاع عن القبيلة وقت الحرب، و قد تغنى الشعراء بذلك كثيرا، و خير مثال على ذلك ما نجده في قصائد الحارث بن حلزة اليشكري، عنترة بن شداد و عمرو بن كلثوم.

و من مظاهر الشجاعة و الكرم إغاثة الملهوف، و مساعدة المحتاج و تلبية النداء، و قد كان بعضهم يوقد النيران ليلا ليهتدي إليه المسافرون و الفارون و الضالون، و هذا المظهر من مظاهر الشجاعة و الكرم قد يؤدي بالإنسان إلى التضحية بالنفس، حماية للآخرين، و إسعادا لهم فهو يقوم بخدمة إنسانية.

و من أبرز خصائصهم أنهم لا يسألون المستغيث عن سبب طلب العوث، بل يسارعون إلى إغاثة قبل كل شيء. إن العربي يحمي المستغيث مهما كان الجرم الذي ارتكبه و في مجال الإغاثة يساعد حتى عدوه. و يدخل ضمن الإغاثة حسن معاملة الأسير في الحرب، كما أن العربي يتصف بعدم إذابة النساء و العجزة من شيوخ و أطفال فقد كان الفارس العربي الشهم، يبحث عن الفارس الشجاع الذي يستطيع مبارزته، و من هنا لا نجد الشعراء يصفون أعداءهم بالضعف بل يصفونهم بالقوة، هذا عنترة بن شداد يصور شجاعة و بسالة خصمه في ميدان القتال(44).

بَطْلٍ كَانَ ثِيَابُهُ فِي سَرْحِهِ يُحْدَى نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامٍ

و كان العربي يهدف من خلال هذه الفضيلة إلى تحقيق رغبة إنسانية هي التعاون و المساعدة و الوقوف ضد الطبيعة الصعبة القاسية، و في ذلك كرم و شجاعة، فضيافة إنسان غريب، و دعوته و إكرامه يعد مظهرا بارزا من الكرم، ليس الكرم المادي المتعلق ببذل المال فقط، بل إنه يتعلق أحيانا ببذل النفس، و هذه شجاعة نادرة يسعى العربي إلى الإتصاف بها فيجعلها طرفة من ضمن الأشياء التي يحرص عليها يقول(45):

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عُودِي⁽⁴⁶⁾
فَمَنْهُنَّ سَبْقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتِ مَتَى مَا تُعَلِّ بِالْمَاءِ تُزِيدِ
وَكَرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنِّبًا كَسِيدِ الْغَضَائِبِ هَيْهَتْهُ يَدُ الْمُتَوَرِّدِ⁽⁴⁷⁾

ب — الأخذ بالثأر

و هناك مظهر آخر من مظاهر الشجاعة و الإقدام، يتمثل في النهوض بعبء الأخذ بالثأر، و الأخذ بالثأر عادة استحكمت في نفوس الجاهلين إلى حد بعيد إلى درجة أن أصبحت عقيدة ينبغي على الشخص القيام بها، و إلا لحقت به اللعنة، و نال شتيمة الدهر، و سبة الأبد، يقول شوقي ضيف: «كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم و صغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يجرمون على أنفسهم الخمر و النساء و الطيب حتى يثأروا من غمائمهم»⁽⁴⁸⁾.

و السبب في اهتمام الجاهلين بعادة الأخذ بالثأر هو الحرص الكبير على كرامة العشيرة أو القبيلة حتى لا يستهان بها فتستدل، و تستأصل⁽⁴⁹⁾.

و كان في اعتقادهم أن الميت حين يموت مقتولا، يظل طائر على رأسه يقول اسقوني إلى أن يسقى الدم، و قد شرح «نكلسن» عادة الأخذ بالثأر فقال: «..فإن الدم يستدعي الدم، و كان هذا الالتزام ثقيلًا على ضمير الوثنيين فالأخذ بالثأر كاد أن يكون بالنسبة لهم (ضرورة طبيعية فإذا لم يستجب لها حرمت صاحبها النوم و الطعام و الصحة)...فهو مرض في الشرف قد يوصف بالجنون...و كان المعتقد أن روح القتيل تظهر فوق قبره بصورة (هامة أو صدى) يصرخ (اسقوني) إلى أن يؤخذ بثأره»⁽⁵⁰⁾.

لقد كان إذن لعادة الأخذ بالثأر نصيب كبير في قيام الحروب، تلك الحروب التي كانت تستدعي الأخذ بالثأر، و كذلك فقد كان العربي يعيش حلقة دائرية بين الثأر و الحرب

ج — الوفاء بالوعد:

و من مظاهر إقدام العربي و عدم تردده، الوفاء بالوعد، سواء كان هذا الوعد مع شخص مات أم مازال حيا و سواء كان هذا مع عدو أو صديق، إن الوعد هو احترام الكلمة، و عدم التراجع أو التردد فيما أخذه العربي على نفسه، فقد كان العربي يتمسك بالكلمة إلى درجة التقديس، و إن الوفاء بالوعد كان شرطا أساسيا للشجاعة و القوة فالشجاع هو الصريح الذي لا يخشى أحدا⁽⁵¹⁾.

إن الوفاء يرتبط عند العربي بالشجاعة، و قد كان العربي يحرص على الوفاء، و مقابل ذلك كان يخشى أن يوصف بالغدر الذي يسبب له العزلة، و ذلك أكره ما يكرهه العربي، يقول الدسوقي: «كان العربي يخشى أن يعرف بالغدر، و تشيع عنه هذه الخلة بين قومه و بين سواهم من القبائل، لأن الغدر و نقض العهد، و إخلاف الوعد يجعله رجلا لا يعتمد عليه في النائبات فيهمله قومه، و يتحاشاه طلاب الغوث و النجدة، و ينفر منه أعداؤه و أصدقاؤه، و هيهات لرجل يتصف بهذه الصفة، و تكون حاله كما ذكرت أن ينبه اسمه، أو يكون من ذوي الرأي و الجاه في قبيلته، و هو ما يحرص عليه كل ذي مروءة»⁽⁵²⁾.

و هكذا نجد أن للإنسان العربي رغبة ملحة في تقديم خدمات للآخرين، و تقديم المثل الأعلى في كل شيء، يريد أن يكون متقدما عن غيره دائما، و قد كان يقدم في سبيل ذلك كل ما يملك. إن الوفاء بالوعد يبين تلك الأهمية التي يوليها الإنسان العربي للوسيلة باعتبارها جزء من الغاية، و إن الطريق إلى الهدف هو جزء من الهدف في حد ذاته.

الخاتمة

يتبين لنا من خلال ما سبق أن إنسان ما قبل الاسلام كان يتصف بجملة من الفضائل والقيم، يأتي في مقدمتها الكرم العربي الذي يتميز بأنه كرم لذات الكرم، يهدف منه صاحبه مساعدة الآخرين، وإلى جانب هذه الصفة نجد العربي متصفا بالشجاعة التي لم تكن تعني التهور والطيش بقدر ما كانت تعني الإقدام وقت الإقدام والإحجام إذا تطلب الأمر ذلك، و تقتضي هذه الصفات الحميدة صفات أخرى مثل الصدق والوفاء بالعهد، ونجدة المستغيث. و مجموع تلك الفضائل الأخلاقية التي اتسم بها العربي هي التي أهلته لتحمل الرسالة الإسلامية الخالدة، ونشرها إلى ربوع الدنيا. لقد كان العرب بحق أمة الكلمة والموقف، والفتوة ومكارم الأخلاق.

الهوامش

01. خليل، الهنداوي (خلق العربي من خلال ديوان الحماسة) محاضرات الموسم الثقافي، دار الكتب الوطنية، حلب، سوريا، 1960. ص 97
02. جبرائيل، جبور (الناحية الإنسانية في الشعر القديم) محاضرات الموسم الثقافي. ص 93
03. العرش، يوسف (نفسية العربي) مجلة المعرفة مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية السنة 4 العدد ص 15
04. عبده، الشمالي : دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية و آثار رجالها، دار بيروت، ط. 4، 1965 م.. ص 92
05. العشماوي، محمد زكي: النابغة الذبياني مع دراسة للقصيد العربية في الجاهلية، دار النهضة للطباعة و النشر، 1980. ص 220.
- 06-07. ريجيس، بلاشير: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، تعريب ابراهيم الكيلاني، دار الفكر. ص 37
08. جبرائيل، جبور: المرجع السابق ص 46
09. ابن سيده: المخصص. مطبعة بولاق. مصر. ص 134
10. ابن سيده: المصدر السابق. ص 137
11. ناصف، مصطفى: دراسة الأدب العربي، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط. 3، 1983. ص 292
12. النويهي، محمد: الشعر الجاهلي، منهج في دراسته و تقويمه، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة. ص 236
13. امرؤ القيس: ديوان امرئ القيس، شرح الأعلام الشنتمري، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1974. ص 32
14. الدمقس: كل ثوب أبيض و الدمقس الحرير
15. السندي، حسن: شرح ديوان امرئ القيس، و معه أخبار المراقسة و أشعارهم، مطبعة الإستقامة، القاهرة، ط. 3، 1953. ص 153
16. طرفة بن العبد: ديوان طرفة ابن العبد، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت. ص 39
17. برك: جماعة من الإبل - هجود: نيام - نواديه: أوائله
18. كهة: ناقة ضخمة مسنة - خيف: ضرع أو جلد الضرع - جلالة: جليلة - الويل: العصا الطويلة - يلندد: ششديدة الخصومة.

19. تر: ندر - الوظيفة: العظم الذي بين الرسغ و الساق - مؤيد: داهية
20. بغيه: ظلمه
21. يقصد أن تركه أحسن لأنه عنيد
22. يمتلئ: يشتمون في الملة و هي الرماد الحار و الجمر - السديف: قطع السنام - المرمد: السمين.
23. جبرائيل جبور: المرجع السابق. ص 60
24. لييد: : ديوان لييد،— تحقيق و تقديم إحسان عباس، وزارة الإرشاد، الكويت، 1962. ص. 320
25. جزور: التي جزرت أي نخرت - أيسار: الذين يضربون على الجزرو بالقдах - مغالق: — القдах التي تغلق الرهن و أحدها مغلق - الأعلام: العلامات.
26. عاقر أو مطفل: الناقة و ربما العجوز - لحامها: لحمها
27. هناك مثل من أمثال العرب (ما نزلت بتالة لتحرم الأضياف)
28. رذية: المرأة التي أرذلها أهلها
29. التكليل: نضد اللحم فوق الجفان - تناوحت: تقابلت رياح الصبا و الدبور، و الجنوب و الشمال
30. لزاز عظيمة: قطاعها - جشامها: يركب معظمها
31. مغذمر من الغدامير و هو أن يرمى الكلام بعضه على بعض و المغذمر يعطي و لا يلتفت - هضامها: كسساها.
32. سمع: سهل - الرغائب: الكثير من المال - غنامها: يغنمها و بصيبيها.
33. سنة: طبيعة
34. لا يطبعون: أي لا تدنس أعراضهم
35. طرفة بن العبد: الديوان ص. 60.
36. ناصف، مصطفى: المرجع السابق ص 292.
37. طرفة بن العبد: الديوان ص 39
38. النويهي، محمد: المرجع السابق ص 1: 235
39. الأعلم الشنتمري: شعر زهير ص 24
40. حتي، فيليب: تاريخ العرب، مطول، دار الكشاف للنشر و الطباعة و التوزيع ط. 3، 1961.. ص 1: 131
41. ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق محمد العيد العريان ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ط1. 1940. ص 116.
42. 43- الدسوقي، عمر : الفتوة عند العرب، مكتبة فحضة مصر، الفجالة 1951. ص 29
44. عنتره ابن شداد العبيسي: ديوان عنتره، دار صادر للطباعة و النشر، 1953. ص 27 .
45. طرفة بن العبد: الديوان. ص 32.
46. قام عودي: أي مت فلم أصبح في حاجة إلى وجودهم.
47. سيد الغضا: ذئب من أحيث الذئاب لأنه يختفي - نهته: هيخته - المتورد: الطالب للورد.
48. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر. ص 62.
49. الدسوقي، عمر: المرجع السابق. ص 35.

50. نكلسن، رينولد: تاريخ الأدب العربي في الجاهلية و صدر الإسلام، ترجمة صفاء. خلوصي، مطبعة دار المعارف، بغداد 1970 . ص. 158.

51. الدسوقي، عمر: المرجع السابق. ص 115.

52. الدسوقي، عمر: المرجع نفسه. ص 117.